المحاضرة الثالثة عشر:

قضايا النقد عند حازم القرطاجني. ابن حزم. ابن رشد. وابن خلدون.

1-قضايا النقد عند حازم القرطاجني (ت 684هـ):

عايش حازم القرطاجني عصرا نقديا تميّز بالجمود والانحسار بعد فترة ازدهار ما أنتجه عبد القاهر الجرجاني وغيره من العلماء، وسيطرت البلاغة بقواعدها على النتاج النقدي، وتظهر رغبة حازم القرطاجني في إعادة بعث الأدب ونقده بروح جديدة، فهو "يريد أن يعيد إلى الشعر مجده، وإلى النقد سيادته، ويسعى في سبيل ذلك، ويهيئ الأدوات، وأدواته، علم بالثقافة العربية، وعلم بما انتهى إلى العرب من ثقافة اليونان، ولا سيما ما انتهى إليه من خلال الفلاسفة المسلمين، كالفارابي وابن سينا."

ومن أهم القضايا النقدية التي عالجها حازم القرطاجني:

1-1-ماهية الشعر وحقيقته:

عرّف حازم القرطاجني الشعر في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء" بقوله: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قُصِد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قُصد تكريهه، لتُحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكلّ ذلك يتأكّد بما يقترن به من إغراب. فإنّ الاستغراب والتعجّب حركة للنّفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها."

ويلامس القرطاجني في هذا النص طبيعة الشعر المبنية على اللفظ، والوزن والقافية، إلى جانب الخيال الذي يساعد في إضافة بُعد جمالي من شأنه الإقناع، والتأثير في نفس المتلقي. وهو في هذا التعريف يدرك أن النص الشعري ينبغي أن يُراعى في نظمه السبيل إلى الإمساك بمفاتيح المتلقي، من خلال أدوات يكون التخييل أبرزها.

وأفضل الشعر عند حازم " ما حسنت محاكاته وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته."

1-2-المفاضلة بين الشعراء:

اهتم العرب منذ العصر الجاهلي بالمفاضلة بين الشعراء، ولعل قصة النابغة الذبياني وحسّان بن ثابت، وكذا قصة أم جندب وحكمها على شعر إمرئ القيس وعلقمة الفحل ما يشير إلى ولع العرب بهذا الإجراء النقدي، ولكنّ حازم القرطاجنّي ينظر إلى المفاضلة بصورة أعمق، وأدق ذلك" إن المفاضلة بين الشعراء الذين أحاطوا بقوانين الصناعة وعرفوا مذاهبها لا يمكن تحقيقها، ولكن إنما يفاضل بينهم على سبيل التقريب وترجيح الظنون."

ويُرجع القرطاجني عدم إمكانية المفاضلة بين الشعراء إلى مجموعة من الأسباب أبرزها تدخّل الذاتية والميول لدى الشخص الذي يقوم بالمفاضلة، واختلاف الظروف، والبيءة،

والمكان، والزمان، وكلها عوامل تؤثر في مصداقية المفاضلة، ويرى حازم القرطاجني أن " حكم كلّ انسان في ذلك بحسب ما يلائمه ويميل إليه طبعه، إذ الشعر يختلف في نفسه بحسب اختلاف أنماطه وطرقه، ويختلف بحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها ممّا شأن القول الشعري أن يتعلّق به، ويختلف بحسب اختلاف الأمكنة وما يوجد فيها ممّا شأنه أن يوصف، ويختلف بحسب الأحوال وما تصلح له."

1-3-التخييل والمحاكاة:

تردّد ذكر التخييل والمحاكاة في الكثير من المواضع في كتاب " منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، ولأن القرطاجني مؤمن بقوة التخييل في نجاح وصول رسالة النص الشعري، فقد رسم أهم الأشكال التي ينبغي أن يسير عليها الشاعر في ذلك " وأحسن مواقع التخييل: أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول كتخييل الأمور السّارة في التهاني، والأمور المفجعة في المراثي. فإن مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدّة التباسه بها يعاون التخييل على ما يُراد من تأثّر النفس لمقتضاه."

وحثّ القرطاجنّي على الارتقاء بالمخيلة، والابتعاد عمّا هو في المتناول من المعاني " ويجب ألاّ يسلك بالتخييل مسلك السذاجة في الكلام، ولكن يتقاذف بالكلام في ذلك إلى جهات من الوضع الذي تتشافع فيه التركيبات المستحسنة والترتيبات والاقترانات والنسب الواقعة بين المعاني."

أما عن المحاكاة فقد قسمها حازم القرطاجني إلى نوعين: فمنها ما تكون مترددة على ألسن الشعراء قديما، ومنها ما تكون طارئة مستحدثة ليس للشعراء عهد بها. كما قسّمها بحسب تنوّعها إلى المألوف والمستغرب. ورأى بأنه كلما قرب الشيء ممّا يحاكى به كان أوضح شبها.

2-قضايا النقد عند ابن حزم (ت 456هـ):

عرف النقد الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين محاولات النقاد إعطاء لمسة تميّز نتاجهم عمّا عُرف عند المشارقة، وبالرغم من اعتمادهم على أعمال شيوخ النقد في المشرق، إلا أنّ النزعة الأندلسية بدت واضحة وأكثر فاعلية عند بعض العلماء كابن حزم الذي مثّل شخصية العالم، والناقد الملمّ بخبايا الأدب، فأصبحت دراساته مرجعا لنقّاد القرن الخامس، ومن بين القضايا النقدية التي عرضها ابن حزم:

2-1-حقيقة الشعر:

يعرف ابن حزم الشعر في رسالته " التقريب لحد المنطق" في باب" كتاب الشعر" بقوله: "هو صناعة قال فيها بعض الحكماء: كلّ شيء يزينه الصدق إلا الساعي والشاعر، فإن الصدق يشينهما فحسبك بما تسمع."

ومن الواضح أن ابن حزم في اعتماده معنى الصناعة يشير إلى مجموعة من الأدوات ينبغي توافرها لهذه الصناعة، ذلك أن كل صناعة ينبغي لها مواد أولية، ومهارة الصانع، وآلات الحرفة. من هنا قسم ابن حزم الشعر إلى ثلاثة أقسام: هي الصناعة، والطبع، والبراعة. "

فالصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة والإشارة، والتحليق على المعاني والكناية عنها." ويعد ابن حزم زهير بن أبي سلمى أبرز من امتلك زمام الصناعة من القدماء، وحبيب بن أوس من المحدثين. أما الطبع " هو ما لم يقع فيه تكلف، وكان لفظه عاميا لا فضل فيه عن معناه، حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهل ولا أخصر من ذلك اللفظ"

وإلى جانب الصناعة، والطبع يرى ابن حزم في الإتيان بالجديد المخترع مقوّمات البراعة فهي" التصرف في دقيق المعاني وبعيدها، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه، وإصابة التشبيه، وتحسين المعنى اللطيف"

2-2-الوظيفة الأخلاقية للشعر:

توقف ابن حزم عند الجانب الأخلاقي في الشعر، وحث على رواية الأشعار التي تهدف إلى تقويم النفس، وبث معاني القيم السديدة، إدراكا منه للأثر الذي يتركه الشعر في النفوس، فذكر في رسائله:" وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير، كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك، فإنها نعم العون على تنبيه النفس."

وفي مقابل تشجيع ابن حزم على رواية الأشعار التي تسعى لنشر القيم، فقد حثّ على الابتعاد عن بعض الموضوعات التي تنشر الفساد والرذيلة، وحدّدها في أربعة أضرب:

أ-الأغزال والرقيق، ذلك أنها تدعو إلى الفتنة، وتصرف النفس إلى الخلاعة واللّذات.

ب-الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب، فهي تؤدي إلى هلاك النفس في غير حق، وتثير الفتن، وتهوّن الشره إلى الظلم وسفك الدماء.

ج-أشعار التغرّب وصفات المفاوز، ذلك أنها تسهّل التغرّب، وقد تضع المرء في مواقف يصعب التخلص منها.

د-الهجاء، لما فيه من تمزيق الأعراض، وانتهاك الحرمات، وذكر العورات.

2-3-ابن حزم وقضية الإعجاز:

عرض ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" مختلف آراء العلماء بخصوص فكرة الإعجاز القرآني، ونجده يتفق مع من يقول إنّ سرّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه، وفيما يحمل من أخبار وأسرار الغيب التي لا يعلمها إلاّ الله. ويقول في رصد حديث بعض العلماء إجابة عن سؤال سر الإعجاز في القرآن الكريم، أهو نظمه؟ أم نصه من الإنذار بالغيوب؟ :" فقال بعض أهل الكلام، إن نظمه ليس معجزا وإنما إعجازه ما فيه من الإخبار بالغيوب، وقال سائر أهل الإسلام: بل كلا الأمرين، نظمه وما فيه من الإخبار بالغيوب، وهذا هو الحق الذي ما خالفه فهو باطل."

وهو بعد اتّفاقه مع من يذهب إلى تفسير الإعجاز، بنظم القرآن، وما يحمله من علوم الغيب، يهاجم من ينسب الإعجاز إلى منزلة البلاغة التي يمتلكها النص القرآني. ويستشهد بنصوص من الموروث الأدبي يتفق العلماء على درجة بلاغتها.

3-قضايا النقد عند ابن رشد (ت595هـ):

عرفت الساحة الأندلسية قبل ابن رشد كتاب "فن الشعر" لأرسطو ولكن في شكل لمحات يسيرة هنا وهناك بين مؤلفات النقاد، فاهتم ابن رشد بتلخيص القوانين الكلية للكتاب، ومحاولة تطبيق ما يتناسب من أفكاره على الشعر العربي. ومن أمثلة القضايا النقدية التي توقف عندها ابن رشد ما يأتي:

3-1-صناعة الشعر عند ابن رشد:

ينطلق ابن رشد في حديثه عن صناعة الشعر من تقسيم أرسطو له، فيرى بأن الشعر قسمين: مديح وهجاء. من منطلق فهمه للتراجيديا والكوميديا على أنهما المديح والهجاء، وقول أرسطوطاليس أن الشاعر في التراجيديا يصوّر الناس خيرا مما هم عليه، ويقوم بالعكس في الكوميديا.

وينتقل ابن رشد إلى الحديث عن التخييل والتشبيه كون الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيلة. ويفصّل ابن رشد في أصناف التخييل والتشبيه. فهي:

أ-تشبيه شيء بشيء وتمثيله به، ويكون بألفاظ خاصة مثل: كأنّ، وإخال، وما أشبه ذلك في لسان العرب.

ب-أخذ الشبيه بعينه بدل الشبيه، وهو الذي يسمّى الإبدال مثل قوله تعالى:﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾

ج-والنوع الثالث هو المركب من القسمين السابقين.

ويحدّد ابن رشد التخييل والمحاكاة في الأقاويل الشعرية من خلال ثلاثة أشياء: النغم، والوزن، والتشبيه. وقد توجد هذه الأصناف مفردة، كالنغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ. وقد تجتمع كلها مثل ما هي عليه الموشحات والأزجال. ولا يغفل ابن رشد الإشارة إلى طبيعة الشعر العربي الذي يختلف عن الشعر اليوناني في كونه يتضمن الوزن فقط، أو الوزن والمحاكاة معا، ولكن لا يوجد فيه لحن.

3-2-بناء القصيدة:

يتوقف ابن رشد عند بناء القصيدة، ويحاول تكييف تقسيم أرسطو لقصائد اليونان مع قصائد المدح العربية، ويبيّن أنّ ما يوجد من أقسام القصيدة في أشعار العرب ثلاثة أقسام:

" الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدر في الخطبة، وهو الذي يذكرون الديار والآثار ويتغزلون فيه. والجزء الثاني: المدح

والجزء الثالث: الذي يجري مجرى الخاتمة في الخطبة.

3-3-وظيفة الشعر:

يؤمن ابن رشد بأن للشعر وللأقاويل الشعرية وظيفة تعليمية، وأخلاقية، ذلك أنه يمكن غرس العلوم النظرية من خلال الخطب والأشعار، فالشعر وسيلة لتعليم الجمهور والعامة وتحقيق المعارف النظرية والحقائق الفكرية التي لا يمكن الوصول إلها بالتوجه العلمي، وهو إلى جانب ذلك يسعى إلى تأديب الجمهور وتهذيبهم ليرتقي بهم إلى الحال الأفضل.

4-قضايا النقد عند ابن خلدون (ت 808هـ):

يعدّ ابن خلدون من أبرز العلماء المسلمين الذين برعوا في علوم مختلفة، فقد اهتم بالفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والعمران، والاقتصاد، والأدب. وتعدّ مقدّمته من أهم المصادر العربية في كلّ هذه العلوم. وعرض ابن خلدون كثيرا من القضايا الخاصة بالشعر، والخطب، والبلاغة، واللسان العربي، ومن أمثلة القضايا النقدية ما يأتي:

4-1-مفهوم الأدب:

نظر ابن خلدون إلى الأدب نظرة شاملة ملمّة بكل تفاصيل هذا الميدان، فهو عند علم يجمع بين الشعر والنثر. وكذا المعرفة بأساليب العرب ونهجهم اللغوي والنّحوي، مع حفظ تاريخ العرب وأيامهم، وأنسابهم، ذلك أنّ " هذا العلم لا موضوع له، ينظرُ في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة، من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو.".

وكذلك رأى ابن خلدون أنه على الأديب الإلمام بالعلوم الشرعية، من علوم القرآن والحديث، إلى جانب علوم اللسان، والمعرفة بمصطلحات العلوم المختلفة لتكون زاده في فهم النصوص والاشعار، والأدب بالمفهوم الأشمل" هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسّلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذٍ إلى معرفة اصطلاحات العلوم."

وعلى هذا النحو يكون الأدب عند ابن خلدون علما موسوعيا يتداخل فيه النتاج الأدبي من الشعر والنثر مع علوم اللسان والنحو، إلى جانب ثقافة تاريخية، وشرعية، ومعرفةٍ ببعض العلوم التي قد يصادفها الأديب في طريق النظم، أو الكتابة، أو النقد.

4-2-مفهوم الشعر:

توقف ابن خلدون عند مفهوم الشعر، وأشار إلى عناصره الأساسية من لفظ ووزن، وقافية، ورويّ. كما أشار إلى طبيعة البناء الشعري. فتحث عن البيت الشعري، وعن المقطوعات، والقصيدة، وكذا خصوصية البيت واستقلاليته. فالشعر عند ابن خلدون " كلام مفصّلٌ قطعا قطعا، متساوية في الوزن، متّحدة في الحرف الأخير من كلّ قطعة. وتسمّى كل قطعة من هذه

القطعات عندهم بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتّفق فيه رويّا وقافية، ويسمّى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنّه كلام وحده، مستقلّ عمّا قبله وما بعده."

وأشار ابن خلدون إلى انتقال الشعراء في القصيدة الواحدة من المقدمة الطللية والغزل إلى غرض المدح، فوصف الرحلة والراحلة، وهو نهج الشعراء في القصائد المطولة. مع ضرورة توخي السلامة في عروض القصيدة وأوزانها " ويراعى فيه اتّفاق القصيدة كلّها في الوزن الواحد، حذرا من أن بتساهل الطبع في الخروج من وزنٍ إلى وزن يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمّنها علم العروض."

ولم يغفل ابن خلدون الإشارة إلى قيمة الشعر عند العرب قديما. فقد كان ديوان علمهم، ومرجع تصويب لسانهم.

4-3-قضية المنظوم والمنثور:

تحدّث ابن خلدون عن انقسام الكلام إلى شعر ونثر، وأشار إلى الوزن باعتباره أهمّ ما يفصل بينهما فقال:" اعلم أنّ لسان العرب وكلامهم على فنّين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفّى ومعناه الذي تكون أوزانه كلّها على رويّ واحد وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكلّ واحد من الفنّين يشتمل على فنونٍ ومذاهب في الكلام."

ولم يهتم ابن خلدون بمسألة المفاضلة بين الشعر والنثر، ولا الحديث عن مسألة المزية، والأوّلية، وإنما أشار إلى أنّ للشعر موضوعاته وأغراضه، وأساليبه، وكذلك للنثر نهجه، ولغته، وعناصره، فقال:" واعلم أنّ لكلّ واحد من هذه الفنون أساليب تختصّ به عند أهله لا تصلح للفنّ الآخر ولا تُستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب."

أمّا عن التفوق والبراعة في الفنّين معا فرآه ابن خلدون صعبا بل غير ممكن إلا للأقلّ، ذلك أن الانسان يملك ملكة أولى بفطرته " فإذا سبقت إلى محلّه ملكة أخرى، قصّرت بالمحلّ عن تمام الملكة اللاحقة. لأن قبول الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدّمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة القابلة وعائقة عن سرعة القبول."

4-4-الموشحات والأزجال في المشرق والأندلس:

توقف ابن خلدون عند الموشحات والأزجال وهو فن شعري ازدهر في بيئة الأندلس، يقول عنها:" وأما اهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذّبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنّا منه سمّوه بالموشّح، وينظمونه أسماطا أسماطاً وأغصانا أغصانا، يكثرون منها، ومن أعاريضها المختلفة، ويسمّون المتعدّد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات."

وذكر ابن خلدون أن مخترعها في الأندلس هو مقدّم بن معافر القبريريّ. كما تحدث عن فنّ من الشعر عرفه أهل بغداد من العامة يسمّى " المواليا" وتحته فنون كثيرة منها المفرد في بيت واحد ومنا ما هو في بيتين. ومثل له ابن خلدون بنماذج من الشعر.